# دعك من الهموم وقبليني

كانت تتقصد النوم في بيت جدتها، بحجة مساعدتها، فتتنقل بين الغرف، ثم تنسحب للقائي ليلاً قرب البوابة البعيدة عن منزل أهلها. ومنذ الجلسة التي أعلنا فيها حبنا قرب النهر، كانت تلك الطريقة الوحيدة للقاءاتنا في صحراء القرية المقفرة والمغلقة على الأصدقاء والتابوات الكثيرة. لقاءنا الأول قرب النهر، كان استعارة أكيدة من الصور الرومانسية الآفلة: خرير المياه، أيدينا المتشابكة، الفضاء الأزرق المفتوح، الأصدقاء الذين يتناسون وجودنا ونتناسى وجودهم...

قرب البوابة نجلس متباعدين بادئ الأمر، ثم يروح أحدنا يقترب من الآخر، بعد أن تهدأ الأفكار التي حضّرناها لهذا الجلوس، فتشتبك أيدينا على استيحاء وتتقارب كتفانا ونبدأ بالكلام الطالع من اضطرابنا وخجلنا والدائر حول ما كنا نفعله قبل علاقتنا، وما سنفعله معاً أثناء علاقتنا التي اعتقدنا أنها ستبقى أبد الدّهر.

كانت تلك الفتاة معلمتي الأولى على الحب الطفولي وممنوعاته وعلى ألاعيبه التي إذا لم تراعَ يفشل في مهده. وبما أن مثل هذه العلاقات في القرى تطول، فإن علاقتنا طالت بينما كان الزهو هدفها والحب فيها مجالاً لمتعة عارمة لا تقترب من الجسد، بل تبقيه مقنّعاً بالعذرية المتخمة بالعواطف.

على الحصيرة قرب النهر قالت إنني جميل وأنها ترى في عينيّ أسراراً تريد معرفتها، ولم

فيديل سبيتي

أكن أعلم حينها أن الفتيات يقرأن في العيون وأن في عينيّ أسراراً. لم أكن أعرف أن للحب مداخل تبدأ من اللاشيء، أو من توصيفات لا معنى لها. قلت لها إنها تراني جميلاً لأن عينيها جميلتان. اخترت هذا الرد لأني لم أجد أفضل منه. بدأ قلبانا يخفقان بشدة فمددت يدي إلى ركبتها العارية ورحت أرتجف كأن تياراً كهربائياً يمر في ركبتها. أما هي فاحمرت خجلاً وراحت تحدق في السماء، وتحدثني عن أخواتها وأهلها...

أنهينا علاقتنا بسبب انتقالي إلى بيروت لألتحق بالجامعة. وفي بيروت لم أنسَ علاقة القرية بسهولة، لأنني لم أندمج في المدينة والحياة الجامعية بسرعة. كنت كلما تعسّر اندماجي، تلح عليّ ذكرى تلك العلاقة القروية الهادئة، فأروح أدوّن يومياتي متوجهاً إلى فتاتي، شاكياً لها الألم الذي يعتصرني نتيجة فراقها. أخبرتها في يومياتي أن مشكلة الاندماج وضرورة فراقها متشابهتان، فكلاهما يدفعانني إلى كتابة يومياتي وإلى الانزواء في البيت دون رغبة مني في الأكل والدرس والخروج. ومما كتبته لها أيضاً : «إنني تائه على إسفلت المدينة، والرصيف المواجه يبعد آلاف الكيلومترات، وأعضائي تقوم بمهامها متحجرة... القمر في المدينة حزين، وما يزيد من حزنه تشابكه مع الهوائيات المنتشرة على سطوح البيوت المكدسة فوق بعضها، والقمر الذي كان ينير عشقنا يعيش في هواء نظيف... أشتاق إليك.» وكنت إذا بكيت أدع الدموع تتساقط على الأوراق، فيسيل الحبر كأنه يبكي. وإذا ما كتبت على ضوء الشموع، أتعمّد إغراق ورقتي بالشمع الذائب، لأترك لنفسي شواهد على حزني الذي أعيشه مغتبطاً، ولكني سرعان ما رحت أقلل من كتابة تلك اليوميات، بعدما تعرفت إلى فتاة في الجامعة.

كانت ترمقني منذ أسبوع، وأعطتني وردة غاردينيا وعرّفتني بنفسها، وفعلتُ مثلها، ثم تبادلنا أطراف الحديث حول الدرس والطلاب وكافيتيريا الجامعة والتدخين وغيرها من أحاديث اللقاء الأول. كان واضحاً أن تلك الفتاة تكبرني سناً. فجسدها الناضج يتقدمه ثديان كبيران وبسمة واثقة مجرّبة، وكلام كثير لا ينضب. سألتني إن كنت أعيش وحدي فأجبتها : وحدي، فاقترحت أن تزورني في يوم قريب، من دون أن تخطر لي فكرة ممارسة الجنس، كما فكرت هي، وأخبرتني في ما بعد. كل ما كان يحمّسني لتلك الزيارة هو أن أستقبل ضيفة في بيتي الذي لم يدخله زائر منذ سكنته. حفزني فكرها السياسي القريب من فكري على أحاديث كثيرة، كذلك حبها لشعري الذي أكتبه وأنا أجلس قربها. ثم راح كل منا يخبر الآخر عن علاقاته السابقة. كانت

كلماتي مقتضبة نظراً لتجربتي المتواضعة، بينما كانت تجاربها مليئة بالإثارة، فأخذت معظم الوقت أستمع إليها... ومارسنا الجنس في لقائنا الأول في بيتي. وكانت تلك المرة الأولى التي أمارس فيها الجنس مع فتاة بالغة. علمتني تلك الفتاة أن الحب يبقى خيالياً إذا لم يبلل بالجسد وأن المدينة تنشئ حباً غير الذي تنشئه القرية. حب المدينة كالمدينة مليء بالضجيج ومبادر ويقتله الروتين، وحب القرية يعيش في الروتين، وسرعان ما صرت أكتب شعراً للمرأة بعدما كانت غائبة عن شعري.

افتناني الجديد بجسد المرأة فتح لي عوالم كانت موصدة فيما مضى. كانت فتاة الجامعة مفتاح الباب الموصود، وقاموس الجسد المبهم. كنا نترك الجامعة يومياً إلى مسبح قريب، نلبس المايوهات ونحتسي البيرة كراشدين، ونجلس على كرسي واحد، ونتشمس تحت شمس حرارتها خفيفة، ثم نأوي إلى بيتي، حيث نحضر غذاءنا وننام على السرير.

اكتشفت حينها أن الحب يصنعه اللقاء الدائم، والأبواب المفتوحة، وأن البعد يقتله، البعد الذي يتحول إلى جفاء، فالجفاء قاتل الحب واللقاء الدائم ينعشه.

في بداية العام الدراسي الثاني، بدّلت جامعتي وانتقلت إلى كلية الحقوق فتعرفت إلى لانا، الفتاة الطويلة والواثقة، التي تعيش وحدها، وتعمل بعد الدوام الجامعي. كانت صلتي بفتاة الجامعة الأولى ما زالت قائمة ولكن الجفاء بدأ يداخلها وأخذ ينخرها كالسوس.

بدأت باستمالة لانا، مستعملاً حب القرية وحب السنة الجامعية الأولى. رحت أستميلها برومانسية، تنحو نحو الجسد. لكن لانا كانت فتاة محافظة وتقليدية، تعمل بكد وتدرس بجدية وتتبجح بعصاميتها، ولا تفهم سوى أن الحب طريق إلى الزواج... جهدت في إقناعها أن الزواج مقبرة الفتاة والحب، وأن منح الجسد لا يحتاج إلى أوراق ثبوتية وشهود وشرعية من أحد... الجسد كالزهرة التي تتفتح ثم تموت لتصير تذكاراً.

لم تقتنع في البداية، لكنها سرعان ما أخبرتني كيف كانت تذوب عندما يلمسها حبيبها الأول، وكم كانت تتمنى لو يفتح قميصها زراً زراً. وأخبرتني كم تعذّبت لفراقه حين انتقلت إلى بيروت وهاجر هو إلى دولة خليجية، ليحقق حلمه بالثراء. تفتحت لانا كقفير نحل عن أسرار علاقاتها السابقة. تمنّعها في البداية زادني تعلقاً بها، وقلة لقاءاتنا بسبب يومها المشغول، دفعني إلى الإصرار على لقائها، فصرت متطلباً أتصل بها أربع مرات يومياً، وأقول لها إني أحتاج إليها، وإني لا أتحمل بعدها.

كنت أشعر بذلك حقاً، وتحولت حاجتي إليها إلى حالة من التحرّق والشك والاستفزاز. علمت حينها أن للحب خطة ثالثة : الصد والطلب، الشك والطمأنينة، الجفاء والحنان، التحرّق وإخفاؤه أو عدم القدرة على التعبير عنه.

كنت أنتظرها على الشرفة، حاملاً كأساً من النبيذ. ففي تلك الفترة رحت أُكثر من شرب الكحول. وأنتظرها وأكتب لها أشعاراً، دون أن أطلعها عليها، لأنني حينما كنت ألتقيها أتحول إلى مستنكر، إلى عاشق من بعد، ويحلم لو أن له ألف فم أو خطه سحرية ليدخل روحها في روحه. لذلك قلت لها إنني أريد أن آكلها. كانت تضحك لتلك الفكرة ضحكة طفولية، كأنها تستعرض استنكاري، وتسخر من تبجحي بحبها. كنت أنتظرها صارفاً كثيراً من النبيذ وعشرات الوحدات الهاتفية. وحين تأتي أجلس بقربها وأسألها بحنو إذا ما كانت جائعة، فتقول: «لا أريد أن آكل، أريدك إلى جانبي فقط.» تلك الجملة تباغتني كموجة بعد زلزال، لكني أُبقي علامات الحزن على وجهي، مكابداً ألم فراقها قبل أن يحدث. أضمها إلي كأنني خائف من أن تختفي. أسألها إن كانت تعبة، فترد بهدوء جدي: «لا لست كذلك، أريدك إلى جانبي فقط، ووجودك قربي يزيل عني كل تعب العالم.»

كانت تلك الجملة تزيدني أسى، فأقول لها أحبك ثم أضمها كطفل تائه. كتبت لها قصائد بالجملة، وكان حلم أكلها يراودني أثناء نومي، وراح يزداد عدد اتصالاتي بها، ولكني بقيت حزيناً خائفاً من فراق ما كان ليأتي لولا خوفي منه.

انتهت علاقتنا بسبب جفائي الذي صنعته من حزني. في جملتها الأخيرة، قالت لي إنها لا تبحث عن حبيب يمطرها بالقصائد وينكّد عيشها. تريد شخصاً يدعوها إلى فنجان قهوة خارج غرفة النوم التي تحولت إلى سجن. قالت تلك الجملة ثم ضربت الباب خلفها.

بعد علاقتي بهيفاء، قررت أن لا حب بعد الآن، بل سألجأ إلى «المصاحبة». كلمة مصاحبة تلك جديدة نسبياً بحسب استعمالها، وهي تعني علاقة بين شاب وفتاة قائمة على الحب الجسدي، وليس لها هدف. فكرت أن في مثل هذه العلاقات مساومات وبلا قيود. تقول لفتاتك إنك تحبها كما هي ولن تحاول تغييرها، وهي تلتزم الأمر نفسه. علاقة المصاحبة أقرب إلى التعاقد منها إلى علاقة الحب.

في تلك الفترة الجامعية، كنت قد أقمت صلات مع الشباب اليساريين في الجامعات والذين يتخذون من شارع الحمراء مكاناً لاجتماعهم ولهوهم. كانت فترة مليئة بالأحلام الثورية وبالشعراء والرسامين والكتاب الذين كنا نتبع خطاهم. كان

نيرودا شاعرنا العظيم وغسان كنفاني ومهدي عامل وزياد الرحباني وغيرهم مثالاتنا العليا.

تشاركت ولارا في شقة واحدة، في ما يشبه المساكنة. فهي تشبهني وتشاركني رأيي في الكثير من الأمور. ولارا فتاة جميلة ومثقفة، تضحك كثيراً وبصوت عال، رغم أن وجهها يحافظ على حزن قديم يزيده بروزاً الكحل الكثيف الذي تضعه حول عينيها. كانت تشبهني بتهورها وخوفها من الاكتئاب الناتج عن الملل. كانت علاقتنا مرتبطة بالجماعة في بدايتها جماعة أصحابي وأصحابها، رواد المقاهي والحانات والأرصفة والمسارح والحفلات الغنائية الملتزمة. كنا ننسجم معاً في الجماعة، كما تنسجم الجماعة مع نفسها. لقد كانت الجماعة أقرب إلى مجموعة حزبية. ولارا وأنا لم نضطر في البداية إلى إيجاد مواضيع لأحاديثنا التي كانت تتغذى من أحاديث الجماعة المشتركة. لم نعش أبداً لحظة من الغيرة، فأصدقاؤنا جميعهم مصاحبون. وغابت النقاشات والمشاجرات، فنحن لم ندخل في تفاصيل علاقتنا ولم نرسم لها شكلاً محدداً نتبعه.

كان حزن لارا وفرحها يشبهان الأدوار المسرحية التي تتعلمها في كلية الفنون بوصفها طالبة مسرح. أحبت ستلافنسكي، وفرويد، وراحت تتقمص أدوارها المسرحية على طريقة الأول وتحلل نفسيات الآخرين على طريقة الثاني. تكلم نفسها أمام المرآة أو تدخل في نوبات ضحك وبكاء متلازمتين لمدة طويلة. كانت تتصرف كطالبة مسرح بامتياز. أداؤها هذا أستدخلته في علاقتنا، ولكنها فجأة كانت تقرر العودة إلى الحياة الطبيعية، بعد أن تمل الحياة المسرحية.

نستيقظ صباحاً، فتبادرني «صباح الخير يا دودة القز»، على ما كانت تدللني. تسبقني إلى تحت الدوش لنأخذ حمامنا الصباحي المعتاد. تمشط شعري، وأمشط شعرها... ثم نختار شخصا من المخيلة لنسخر منه. مارسنا هذا الطقس يومياً حتى آخر يوم في علاقتنا. بعد انتهاء طقس ما بعد النوم، ندخل إلى المطبخ ونتعاون في تحضير فطورنا، نحمله إلى غرفة الجلوس على صينية كبيرة ونبدأ بالأكل كأننا لم نأكل منذ زمن بعيد. فطورنا الفرح سببه النهار الفرح الذي ننتظره على الأغلب. كانت نهاراتنا جميلة خارج النوبات المسرحية التي يصطنعها كلانا في فترات متقاربة. نهاراتنا تبدأ بشراء الكحول من المحال التجارية التي تفتح باكراً في شارع الحمراء، ثم تذهب إلى جامعتها وأنا إلى جامعتي، أو نتمشى قرب البحر، إذا كان الطقس جميلا، أو نجلس في مقهى ما إذا كان الجو ماطراً. وفي كل الأحوال كانت تنتظرنا

سهرة صاخبة في منزل أحد الأصدقاء. ما فعلناه في أول أسبوع من علاقتنا، ظللنا نفعله حتى آخر يوم فيها..

الدوش الصباحي، الفطور، شرب الكحول باكراً، التسكع، السهر مع الأصدقاء، ثم العودة إلى المنزل. الممارسة اليومية للجنس أدخلت علاقتنا في الروتين والجفاء اللذين ينخران العلاقات كلها كالسوس. علاقات الجنس وعلاقات الشعر وعلاقات الألفة والعذرية وعلاقات الجفاء، كلها يحطمها الروتين والجفاء بالطريقة نفسها، ولو أنهما يدخلانها من أبواب مختلفة.

ما كان يجري بيني وبين لارا كان معاكساً لما جرى مع لانا، وما جرى مع لانا كان معاكساً لما جرى مع فتاة الجامعة... كأن علاقات الحب تدفع بعضها بعضاً إلى حافات انهيارها، حتى ليبدو أن العلاقة الثانية هي انتقام للأولى، وأن الثالثة انتقام للثانية. لا يمكن الوصول إلى حالة واحدة في الحب، حالة مستقرة وثابتة.

كانت الفتيات اللواتي ينضجن قبلنا، نحن الشباب، متفقات على أن علاقة الحب تعني الحاجة إلى الآخر. وكن يتفقن على أن الانتظام والتتابع والمضي بها في وتيرة واحدة ستؤدي إلى أفولها. كن يمضين وقتاً ممتعاً معي، كن يحببني حقاً. وإذا كان للحب تعريف، ذلك الحب الدائم التبدل كالحرباء، فإنه يتلون بألوان العلاقات التي نقيمها ونعتادها، فيدخل فيها ويختفي ويصبح جزءاً منها.

لذلك نعتقد أنه يتلاشى، دون أن ننتبه أنه يمارس علينا خديعة، فيذوب في العلاقة كالملح في الماء.

تعرفت إلى الألمانية التي تعودت على حياتها الفردية، ولا تبحث عن علاقة ثابتة وجدية.

أظهرت هذه الفتاة تعاطفاً معي عندما سردت لها وقائع علاقاتي السابقة مع فتيات أخريات. كان جو أصدقائها الأوروبيين مختلفاً بالنسبة لي، فالرتابة فيه معروفة سلفاً.

الأوروبيون لا ينزعجون من الرتابة. فالأحاديث التي يباشرونها، لا تعدو كونها عناوين عامة وخطوط عريضة. لا يتكلمون عن الأشياء بتفاصيلها، ولا يعرف أي منهم تفصيلاً عن حياة الآخرين. يجتمعون على الطعام فقط، ويبدو طقس الطعام كاف لدوام صحبتهم. رتيبو الحركات، ولا يستعملون الإشارات حين يتكلمون، يتلون حديثهم كأنهم يقرأون في كتاب.

يلتقون بحسب مواعيد وينهون لقاءهم بسرعة كأنهم يخافون امتداد الحديث إلى حيث لا يريدون. أدخلتني تلك الألمانية إلى عالم شبيه برواية، وصرحت لها أني أريد أن أكتب رواية عن حياتي معها. معها تعودت على الرتابة في شكلها الحقيقي، ورحت أراقب أبطال روايتي الآتية، فتحولت إلى مراقب يشاهد الأشياء من خارجها. وهذا ما اكتشفته الألمانية فيما بعد، وقالت إن العيش مع مراقب كذبة، كمن يعيش مع قبيلة قرود، معتقداً أنه في مجتمع مثالي.

حملت أغراضي وعدت إلى منزلي محبطا، ولكن بفرح لأني صرت مستكشفاً ممتازاً. قلت لها مرة : «دعك من هذه الأمور وهمومها، فالأوزون سترتقه جدتي، والمساحات الخضراء ستلونها أختي الصغيرة، والشعوب الفقيرة ستصعد إلى الجنة، دعك من هذه الهموم وقبليني.»